ملف المدى

من جديد عادت الشيشان الى واجهة الاحداث واستيقظ العالم أمس على وقع انباء هجوم لافت شنه مسلحون على مبنى البرلمان وسط العاصمة الشيشانية ليحولوا المزاعم الروسية بانتهاء التمرد في هذه الجمهورية القوقازية الى مجرد كلام يزيد من حراجة الموقف الروسي في معركة بسط السيطرة والنفوذ على الشيشان التي تطالب بالاستقلال منذ أكثر من مائتي عام وما تزال. ملف المدى اليوم يخوض في القضية الشيشانية ويبحر في تفاصيلها مسلطا الضوء على تاريخ النزاع الروسي الشيشاني وما تتميز به هذه الجمهورية القوقازية التي لطالما تردد ملفها الشائك على الالسن في هذا المكان او ذاك من العالم.

■ اعد الملف / جمال القيسي

الشيشان..

قصة صراع من اجل الاستقلال تخللته حروب وعمليات مسلحة مروعة

قوات حكومية امام مبنى البرلمان الشيشاني... أ.ف.ب

مسلحون شيشانيون يهاجمون البرلمان في وضح النهار

في اشارة واضحة على ان الحال في الشيشان ما زال مصدر خطر كبير على روسيا وان الحديث عن انتهاء التمرد في هذه الجمهورية لايعدو عن كونه مجرد امنيات بعيدة المنال، هاجمت مجموعة من اربعة مسلحين شيشان امس الثلاثاء مبنى البرلمان الشيشاني في غروزني وقتلت اربعة اشخاص قبل القضاء عليها بايدي قوات الامن.

وقالت السلطات المحلية وشهود اتصلت بهم وكالة فرانس برس ان مجموعة من اربعة متمردين هاجمت قبيل الساعة ٠٥،٠٠ تغ مقر البرلمان الشيشاني في غروزني.

ونحو الساعة ٠٧،٠٠ تغ، اعلنت الحكومة الشيشانية انها تمكنت من "تصفية" المهاجمين، بينما اعلنت وزارة الداخلية ان الهجوم اسفر عن مقتل ثلاثة شرطيين مكلفين، بامن المبنى اضافة الى موظف في البرلمان.

ونقلت وكالة انترفاكس عن الرئيس الشيشاني رمضان قديروف قوله "ان عملية تصفية المهاجمين وتحرير النواب والموظفين استغرقت ما بين ١٥ و٢٠ دقيقة".

وأضاف ان "جميع النواب احياء وتم اخلاؤهم من موقع البرلمان وهم في امان". و عقب الهجوم تباحث قديروف مع رئيس الوزراء الروسي فلادمير بوتين الذي كان شن في ١٩٩٩ الحرب الثانية في الشيشان.

وأعطت لجنة التحقيقات في النيابة العامة رواية مختلفة قليلا. وقالت في بيان ان حصيلة الهجوم هي ثلاثة قتلى (شرطيان ومدني) و١٧ جريحا. وبحسب هذا المصدر فقد هاجم ثلاثة انتحاريين فجروا انفسهم، البرلمان.

وأضافت اللجنة "دخل ثلاثة مقاتلين مجمع غروزني الحكومي وفجر احدهم نفسه عند مدخل البرلمان. ودخل الباقيان المبنى وتحصنا بداخله وخلال هجوم (قوات الامن) فجرا نفسيهما".

واكدت وكالتا انترفاكس وريا-نوفوستي الروسيتان ان مهاجمين فجرا نفسيهما داخل المبنى.

ومن جهة اخرى قال الجهاز الإعلامي التابع للرئاسة الروسية إنه تم اطلاع الرئيس دميتري ميدفيديف على عملية أمنية ضد إرهابيين هاجموا البرلمان المحلي في الشيشان صباح امس الثلاثاء. وتلقى الرئيس ميدفيديف الموجود في مدينة دوفيل الفرنسية حيث يجري محادثات مع قادة فرنسا وألمانيا، المعلومات عما حصل في غروزني من مدير الجهاز الأمني ألكسندر بورتنيكوف ووزير الداخلية رشيد نور عليييف والرئيس الشيشاني رمضان قادروف.

وهنأ وزير الداخلية الروسي رشيد نور غالييف الموجود منذ الاثنين في غروزني، قوى الامن الشيشانية، بحسب وكالة ايتار-تاس الرسمية معتبرا ان "وزارة الداخلية الشيشانية تصرفت بشكل مهني".

واكد ظليم ياخيخانوف المتحدث باسم رئيس البرلمان الذي كان موجودا في المبنى عند وقوع الهجوم، لوكالة فرانس برس ان "كافة الارهابيين تمت تصفيتهم" مشيرا الى انه احصى "اربعة او خمسة" مقاتلين متمردين.

واضاف "سمعنا عند الصباح اطلاق نار في الساحة وادركنا ان هناك محاولة لاخذنا رهائن. وصعدنا للاحتماء في الطابق الثالث حيث بقينا حتى نهاية العملية".

وهذه العملية للتمرد الذي يدمي منطقة القوقاز الروسي ولم تتمكن موسكو من انهائه منذ اكثر من ١٥ عاما، هي الاهم في الشيشان منذ هجوم كبير نهاية آب على القرية التي ولد فيها الرئيس الشيشاني.

وتشهد جمهوريات هذه المنطقة الجبلية في جنوب روسيا مثل انغوشيا وداغستان والشيشان، هجمات وكمائن واعتداءات بشكل يومي تقريبا.

وكانت الحكومة الروسية قررت في ربيع ٢٠٠٩ انهاء "عملية مكافحة الارهاب" القائمة في الشيشان منذ نحو عشر سنوات.

دولة اسم عاصمتها "المرعب"!

جمهورية الشيشان من بلدان اقليم القوقاز التي ضمتها روسيا قسرًا إليها عام ١٩٢٠، ورغم شهرتها إلا أن الشيشان ذات مساحة محدودة تبلغ (١٧،٠٠٠كم٢)، تقع في منطقة جبال (القوقاز) - التي تمتد بطول ٦٠ ميلاً ما بين البحر الأسود غربًا وبحر قزوين شرقا - وهي في الجنوب إلى (موسكو) بحوالي ١٠٠٠ ميل، ويحدها كل من (داغستان) و(جورجيا) و(أوسيتا) من الجنوب و(داغستان) و(روسيا) شمالا، و(أوسيتا) الشمالية و(أنجوشيا) غربًا، ويسكن الشيشانيون شمال (القوقاز) منذ أمدٍ بعيد، وكانوا يعرفون باسم (يناخ)، وسماهم الرومان شعوب الكيست.

وترجع تسمية الشيشان بهذا الاسم إلى القرية الشيشانية (تشتشن) الواقعة على (نهر الأرجون) جنوب شرق العاصمة (غروزني)، وكان الروس أول من استعمله عام ١٧٠٨م.

وعرف شعب الشيشان الإسلام قبل ألف عام عن طريق التجار العرب، ويغلب على معظمهم النزعة الصوفية؛ فهم شعبٌ مسلم سني في معظمه يتبع المذهب الشافعي، كما تتمتع الحركات الصوفية بنفوذ كبير في بلاد القوقاز بصفة عامة.

ويقدر سكان الشيشان عام ٢٠٠٢م بحوالي ١،١٠٣،٧٠٠ (مليون ومائة وثلاثة آلاف وسبعمائة)، ويدخل في سكان الشيشان عروق أخرى مثل الروس، و الأنجوش، و الداغستان، و الأرمن، وغيرهم من التتر والترك واليهود. وتمثل القومية الشيشانية كبرى القوميات (٨٥٪ من السكان).

عاصمة الشيشان هي (غروزني)، وهي كلمة شيشانية تعني المرعب، وتستأثر بحوالي ثلث سكان الشيشان، وهي مدينة محصنة تقع على رابية حول (نهر السونج)، تحيط بها مجموعة محصنة من القلاع أشهرها (قلعة بريجرادني)، وتعد (غروزني) مركزًا تجاريًا صناعيًا سياسيًا مهمًا، ويذكر أن الرئيس الشيشاني (أصلان مسخادوف) قد غير اسمها إلى (جوهر) تيمنًا بالقائد (جوهر دوداييف) الذي أعلن استقلال الشيشان عن روسيا.

ومن المدن الهامة الأخرى في الشيشان : مدينة (جودرميس)، وتعد ثاني مدينة في الشيشان من حيث الأهمية السياسية والاقتصادية، وكذلك مدينة (أوروس مارتان)، و(أرجون)، و(شالي).

محطات من صراع عمره اكثر من مائتي عام ومازال مستمرا حتى اليوم

لم تخمد حركة المقاومة الانفصالية في المنطقة منذ محاولات روسيا القيصرية وحتى اليوم،، وكان (الشيخ منصور أوشورم) علامة بارزة في هذه المحاولات ؛ وهو صوفي جمع حوله عشرات الآلاف من المريدين، وأعلن الحرب ضد الروس ولكنه هزم في معركة (نهر السونجا)، ثم اعتقل ومات في السجن عام (١٧٩٣م)، وانتهى الأمر بمريديه إلى اللجوء للجبال، واستمرت المقاومة زهاء ثلاثين عامًا. ثم ظهر (الإمام شامل) الذي ينتمي إلى (النقشبندية)، وهو الذي أسس دولة إسلامية في (الشيشان) و(داغستان)، لكنها لم تمتد طويلا بعد أن قبض عليه وأعدم في (١٨٥٩م)، وفرّ أتباعه إلى الجبال وإلى (مكة) و(المدينة) و(تركيا)، وانتهى عصر (النقشبندية) ليأتي دور (القادرية)، والتي دخلت (القوقاز) في عام (١٨٦١م) على يد (حاجي كونتا كشييف). وفي عام (١٨٦٤م) قام الروس بقتل ٤٠٠٠ شيشاني في منطقة (سالي) وانتفض الشيشانيون في الفترة ما بين (١٨٦٥- ١٨٩٠م)، وامتدت الانتفاضة مع الثورة البلشفية (١٩١٧م) كذلك، وقادها الحاج (أذن) ولمدة ثماني سنوات حتى أعلن (إمارة شمال القوقاز)، وكان الحاج (أذن) لا يرى فرقا بين القياصرة والملاحدة، وتوعّد من ينسى اللغة العربية أو يتعمّد الكتابة من اليسار إلى اليمين قائلاً: "أيما مهندس أو تلميذ أو أي أحد على العموم يكتب من اليسار إلى اليمين فسوف يتم شنقه".

وفي عام (١٩٢٥م) تم سحق الانتفاضة وأعلنت الحرب على الشيشانيين والمتصوفة، واعتقلت السلطات السوفيتية أنصار الشيخ والمريدين واستمرت المحنة حتى بداية الحرب العالمية الثانية، ولجأ الأتباع مرة أخرى إلى الجبال ليعيدوا تنظيم أنفسهم من جديد.

ستالين وخرتشوف وسياسة الإبعاد:

لم يكن الروس ليرضوا بهذا النوع من المقاومة المستمرة، والتي لم تشهد لحظات فتور أو قبول بالأمر الواقع، وما إن سنحت الفرصة مرة أخرى في عصر ستالين وفي الحرب العالمية الثانية حتى اتهمهم بأنهم خونة وعملاء لـ(ألمانيا) وحلفاء لها، والواقع يقول بأن فصيلاً من الشيشانيين راهنوا على انتصار الألمان الذين احتلوا (شمال القوقاز) بين عامي (١٩٤٢- ١٩٤٣م) ووعدهم بالحرية إذا ما أيدوهم، لكن بقية الشعب وبالرغم من تاريخ الكراهية الممتد مع الروس إلا أنهم كانوا على قناعة أن الألمان لو انتصروا فلن يمنحوهم حقهم في الاستقلال؛ لأن الألمان يرون شعوب العالم دونهم عرقيًا !! وفي عام (١٩٤٤م) بدأ حركة الإبعاد عن (الشيشان) بل و(القوقاز)، فقد قامت قوات ستالين في (٢٣ شباط ١٩٤٤م) بإبعاد قرابة مليون مسلم من ست جنسيات قوقازية من بينهم (الشيشان) و(الداغستان) و(البلكار) و(مشدين) و الأتراك والأكراد إلى (وسط آسيا).

وقد تم تهجير وتشريد الشعب الشيشاني مرتين: المرة الأولى عام (١٨٥٠م) إلى (تركيا) ومنها انتشروا في المناطق المجاورة من بلاد الشام؛ وكان ذلك بسبب مطالبتهم بالإفراج عمن سجنوا من أئمتهم. وبدأ التهجير الثاني في (شباط ١٩٤٤م) بزعامة (ستالين)، إلى سيبريا التي تصل درجة الحرارة فيها إلى ٥٠ تحت الصفر، بعد أن حشروا في عربات قطارات البضائع دون طعام ولا ماء، وتحت تهديد السلاح، فمات ٥٠٪ منهم. وعندما أذن لباقي الأحياء بالعودة عام (١٩٥٦م) في عهد (خرتشوف)، لم يرجع سوى ٣٠٪ فقط ليجدوا الروس قد احتلوا كل شيء، وأغلقوا ٨٠٠ مسجد، وأكثر من ٤٠٠ مدرسة لتعليم الدين واللغة العربية، ولكن شيئًا من ذلك لم يثن عزيمتهم، يقول الشاعر الروسي سولجستين: "إن ما حدث كان له أكبر الأثر في تقوية الوازع الديني للمهاجرين في المنفى، وإن غياب المساجد أو هدمها أو إغلاق المدارس لم يكن عائقًا أمام استكمال التعليم الديني الذي عاد على شكل حلقات ودروس خاصة". أما أهل الجبال وأصحاب العزائم الشديدة فقد جمعوا في إسطبلات الخيول وسكب عليهم البترول وأحرقوا أحياء، كما أحرق الروس أهل (قرية خيباخي) جميعًا، شيوخًا ونساءً وأطفالاً، وكانوا ألف نفس بشرية.

الحرب الأولى

على مدار الفترة (١٩٥٧- ١٩٩٠م) (موعد إعلان الاستقلال) لم يكن هناك ما يعكر الهدوء، كما أن روسيا رفضت أن تعترف بجريمتها في الشيشان، بل رفضت فتح الملف نهائيًا، ورغم ذلك بقيت ذكريات تلك الأيام ماثلة في أذهان الشيشانيين.

وفي التاسع من حزيران عام ١٩٩١ عقد المجلس الوطني الشيشاني جلسة أقر فيها قرار الاستقلال ودعا إلى الانفصال، لكن الصراع بين (غورباتشوف) و(يلتسين) كان طاغيًا على الساحة، ولم يلتفت الروس إلى الشيشان آنذاك، وربما كان ذلك ترتيبًا ذكيًا من (يلتسين) الذي بدا كديمقراطي يرفض كل مساوئ الشيوعية، والذي حاز على ٨٠ من أصوات الناخبين (الشيشان) في الانتخابات التي جرت في ١٩٩١/٦/١٢.

لم يكن الروس في وضعية تؤهلهم لخوض الحرب في (الشيشان)؛ فالأمور الداخلية تتسارع بشكل كبير، وتفكك الاتحاد السوفيتي جعل من البحث عن ميراثه أولوية روسية، ولظنهم أن (جوهر دوداييف) يمكن أن يكون حليفًا يوما ما، فهو رافض للشيوعية مثله في ذلك مثل (يلتسين)، ولكن (دوداييف) استثمر الفترة (١٩٩١- ١٩٩٤م) في ترسيخ الانفصال وتأكيد هوية الدولة الجديدة؛ فقام بحل أجهزة الأمن والمخابرات التابعة لروسيا، كما قامت قواته بالسيطرة على مخازن الأسلحة والذخيرة، وطرد القوات الروسية التي تركت خلفها ٨٠ ٪ من أسلحتها الثقيلة، وفي (آذار ١٩٩٢م) تم إقرار الدستور.. وفي (٢٩ تشرين اول ١٩٩٤م) بدأت الحرب الشيشانية الأولى: وذلك عقب عملية عسكرية فاشلة في ٢٦ من الشهر ذاته إثر كمين نصبه الشيشانيون لرتل من الدبابات الروسية وتم أسر (٦٠ جنديًا روسيًا)، أعلن بعدها مجلس الأمن القومي قراره بإرسال قوات إلى (الشيشان) وأطلق (يلتسين) يومها إنذاره الشهير والذي طالب فيه الشيشانيين بالاستسلام في ظرف يومين امتد إلى سنتين!!!

اتفاق سلام

ورغم محاولات الروس إيجاد حكومة بديلة لحكومة المقاتلين الشيشان إلا أنهم اضطروا في النهاية إلى التفاوض مع ممثلين عنهم كان من بينهم)أصلان مسخدوف(والذي وقع اتفاقية الأطر) الحاكمة للعلاقات الروسية الشيشانية (تشرين اول ١٩٩٦م) مع (فيكتور تشرنوميندين) رئيس وزراء روسيا.

ثم انتهى الأمر بتوقيع اتفاقية معاهدة السلام مع روسيا (في ١٢ ايار ١٩٩٦م)، وهي اتفاقية تمنح الاستقلال الفعلي للشيشان، وإن لم تمنحه لها بشكل قانوني إلا أن نصوص الاتفاقية تمثل فرصة قانونية أمام (الشيشان) لإثبات استقلاليتهم عن الروس.

ونتيجة لما ألحقه الروس بالشيشان من دمار هائل؛ انحسرت الحياة الاقتصادية في الشيشان، وانهارت البنية التحتية والصناعية بفعل الحرب، كما تم اختلاس الأموال التي خصّصتها (موسكو) لإعادة الإعمار - بشكل روتيني - قبل أن تصل إلى أماكنها؛ فمثلاً في (١٩٩٧م) أبدى (يلتسين) دهشته من أن (١٣٠ مليون دولار) أرسلت إلى (بنك الشيشان الوطني) بينما الذي وصل فعلاً كان حوالي (٢٠ مليون دولار) فقط. ولم يبق من بين (٤٤ منشأة صناعية كبيرة) كانت تعمل في (١٩٩٤م)، غير (١٧ منشأة) فقط في (١٩٩٩م)؛ وهو العام الذي حقق فيه الإنتاج الشيشاني معدل (٤- ٨٪) من مستويات الإنتاج قبل الحرب. وفي (١٩٩٨م)، وصلت البطالة إلى (٨٠٪)، وكانت مصادر الدخل الشرعية لا تكفي ثلث حد الفقر. في هذه الظروف، أصبحت المقايضة وقطع الأخشاب واستخراج المعادن وسائل هامة من وسائل البقاء. وانتعشت الجريمة، وشاع الاختطاف، وعصابات البترول صغيرة الحجم في (١٩٩٩م)، التي أدارت حوالي (٨٠٠ معمل تكرير صغير) بعد سرقة البترول من أنابيب النقل، كما نشطت تجارة السلاح في (غروزني)،، وانهار الضمان الاجتماعي، وكاد التعليم ينهار، وبلغ معدل وفيات الأطفال إلى ١٠٪.

الحرب الثانية حرب (بوتين)

بعد شهر من تولي (بوتين) رئاسة الوزارة الروسية، بدأ الحرب على (الشيشان)، والتي كانت أهم وسائله في الصعود إلى الرئاسة في (اذار ٢٠٠٢م). واتصفت حرب (بوتين) في (الشيشان) منذ بدايتها بالاستخدام المفرط؛ حيث زاد عدد القوات من (٢٤ ألف جندي) إلى (١٠٠ ألف جندي)، واستمر القصف الجوي عدة أسابيع حتى سوى كل شيء في شمال (غروزني) بالأرض، ثم استولى عليها.

و خطا (بوتن) خطواته الرزينة نحو النصر في الانتخابات وعين (أحمد قاديروف) حاكمًا، وظلت قوات المقاومة الشيشانية تقوم بعمليات حرب العصابات واصطياد القوافل العسكرية ودوريات الحراسة ليلاً، متخذة من الغابات حصنًا وملاذًا آمنًا.